الفصل الحادى عشر

عزل بقيَّة ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وحَانَ انصرافُ أَمير المسلمين إلى بلاده بالعِدْوة، بعد أَن أَكْمَل ما شاءَه من أمر بنى عَبَّاد وصاحِب المَرية:

ونَحنُ ذاكِرون منها ما بَلَغنَا منها، مِمّا يقبله العقلُ، لا بتخليط الناس، ونَخْتَصِر من الوصْف مـا يُغْنَى عنه الإكثار: فإنها أمور لم نُشاهِدْها، فنخبِرَ عن يقين وإطناب؛ ولا غابت عنَّا كلّ الغياب، فنجْهَل مَصْدَرَها ومَوْرِدَها، أنّ الذى كَنْتُ فيه أَشغَلُ وأَكْرَبُ من الْتِفات ما حدث بَعْدُنا لقلّة المبالاة بما لا يغنينا منها، ولشُغلِ خواطِرنا بما دَهَيْنا به، على أنَّ ذِكْرَ ما سُمِعَ، ونَحْنُ قد أَمِنَّا من المَوْتِ، أيْسَرُ من ذِكْرِ ما عايَنَّاه، ونَحْنُ جازعونَ منه. فحقٌّ لنا أن نذهل عن عِلْم جليَّتِه بالمعاينة، وعن وَصْفِه بعد الأمان؛ فإنه من ذكْرَ الهَوْلَ، فكأنه فِيهِ.

وقد كان أمير المسلمين، قَبْلَ مَجيِئِه إلى غرناطة، قد وعد المُعْتَمِد بها، وقال له: «أنا رجلٌ مَغْرِبِّى؛ وليس قَدَّمَنى أخْذُ مالٍ ولا بلادٍ! * [ق ٦٦ ب] وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة؛ ونتوقّع عليها من الرومىّ. وليس غَرَضى أَكثَر من تخليصها؛ فإذا صارتْ فى يدى، ولا يُمْكننى إمْسَاكُها لِبَيْنِ بلاد الأندلس من العِدْوة، وضَعْتُها عند ذلك فى يَدِك: فتكونُ أعْلَمَ بما تَصْنَعُ بها، وأقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ المسلمين.» .

فلَمْ يَشُكَّ المُعْتمِدُ أنّ ذلك منه كائنٌ؛ وَعَمِلَ حسابًا آخرَ أن قال فى نفسه: «إنْ لم يتهَيَّأْ لـه أَخْذُها بعقود صاحبها عن الخروجِ إليه، فَلَيْسَت مِمَّا تُؤْخَذُ من وقفةٍ واحدةٍ ! ستنجرُّ الحالُ من أجْلِها، وتشيخُ عليها المحلات، كما صُنِعَ بِلِييط، وتدخل الشتوة، فيحتاجُ إلى الانصراف، وتبقى هذه المَعاقِل التى طاعت للأمير أكونُ زعِيمَها. وفى خلال ما يتلوَّى أمْرُ غرناطة، أحْتِيجَ إلىَّ، وكان لى بذلك الصولةُ على الفريقَيْن، ولا نُخْلَى من بَرَكَتِها!» .

وكان الحبيبُ إليه أن تَبْقى على ما ذَكَرناه، إذ لا يعلم، عند حصوله عليها، ما تكون قَرْعَتَهُ معه، كالذى كان. وسكت عَنِّى فى الأمرْ؛ ولم يُرَ الانكشاف بسرِّه إلى رَئيس يفشى عليه، غَيرْ رُموزات، إذ ذاك لا تنفع. ولو قال لى: «امْتَسِكْ!» فأنا أحْوَطُ على حالى، أو: «اخرُجْ!» لم أطِعْهُ ما تهمه؛ ولا يمكن أن يعطينى تَقْوِيَةً، فيفتضحَ عند المُرابط. إنمّا كان صَنْعُ الأمير أن يَطّلع وَيَرَى، عسى يتهيأً له فى النصبة شىء، أو يَسْلَم من معرتِهِ؛ قد تنشَّبَ، ولم يَجِدْ مَحِيصًا غير ما كان بسبيله.

وكذلك ابنُ الأفْطَس معه على تلك الحال. وصَاحِبُ المَرِيَّة فى المَرِيَّة لم يتحرَّك: كلُّ أحَدٍ منهم إلى ما ينقض من أمْرِ غرناطة؛ قد أبْهَتَهم أمْرُها. وأقْلَقَهم.

ولَمَّا بصرتُ تألبَهم علىَّ مع الأمير، خاطَبْتُ كلَّ واحدٍ منهم بكتابٍ أقولُ لهم: «هذا الأمْرُ مُنْجرٌّ إليكم! واليَوْمَ بى وغَدًا بكم!» فلم يمكنهم قِراءَة الكُتُب دُونَه، وعرضوها عليه. فخنق علىَّ، وكُتِبَت الأجْوِبة بإملائه، يقولون: «إنَّما تُريد أن تَلْطَخْنا بأفعالك،* [ق ٦٧ أ] ونحن قد برَّأنا اللهُ منها!» وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب: فِعْلُ من قد وَجِلَ، ولم يقدر على أكثَر ما قدَّمْنا ذِكرَه، مع الطمع وعَمْىِ البصائر، كما وَصَفْنا قَبْل.

وكان رُسُلُهم إلىَّ قبلَ ذلك يحضُّونى على الأمِتساك والتَجَلُّد. وقال ابن الأفْطَس: «أنا أعتذرُ عنه!» ولم يَرَوا كَتْبَ كِتابٍ خَوْفًا من أن يكون ظهيرًا عليهم، غَيْرَ إهداء ذلك على الألْسِنَة. فعلمتُ أنهم قَوْمٌ قد أسْلَمونى إلى طاقتى؛ فإن كانت لى، لم تَدْخُل عليهم داخلةٌ؛ وإن كانت علىَّ، لم يُفْسِدوا وجُوهَم مع المُرابِط؛ وحَسْبُه اجتهادُهُم معه بأنْفُسهم ورجالِهم.

فرأيتُ حالى فى هذا كلِّه تالِفَةً، وعَلِمْتُ أنه، طُولَ مدَّة امتساكى او امْتَسَكْتُ، لكان سلاطينُ الأندلُس أجمع متألِّبين على فِتْنتى مع رَعِيَّتى، لِما يلزمهم من الطاعة للمُرابِط والطمع، عسى يحْصُل لأحَد مزيدٌ فى بلاده، ولا تمكن لأحَدٍ منهم مَعُونتى ولا الاسْتِفْسَاد من أجْلى. فنَحْنُ لم يُعِنْ بعَضْنا بَعْضًا على الرُّومىِّ! فكَيْفَ على المُسْلم، مع حَرْب الكانون وقِيام أهل البيت! هذا ما لا طاقةَ به لمن عقل! ولم نظنَّ نحن أنّ الأمْرَ ينفتق إلى هذا كلِّه، ولا نُعاجل هذه المُعاجَلة. ولو عَلِمْناه ذلك، لم يكن أحدٌ يتقدمنى إلى الخروج إليه، إذ ما سِوىَ ذلك على هذه الرتبة لا ينفع. وإنَّما طَمَعْنا بما قَصَصْناهُ قَبْلُ، وحَسْبُك!

وإنه، لمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجْرَ على قياس، خَرَجْنا إليه، ولم نَلْتَوِ ساعة.

٧٨ - حركات المُرابطين على المَرِيَة.

ولم يُقدِّم أميرُ المسلمين شيئًا، وَقْتَ خروجى إليه، على إرسال جَيْش إلى صاحب المَرِيَة، قَبْل ابن عَبَّاد، إذ كان بتَخلُّفِهِ مَوْسُومًا بالنفاق، ولأنَّه مُعاقِدى على ذلك، وأنَّ تَخَلُّفَه لا يكون إلا عن اتفاق.

فلم يُحَرِّك منها مَوْضِعًا إلاَّ وأجابَ. وتناثَرَتْ مَعاقِلُه أجمع، حتى بلغ العسكرُ إلى باب المَرِيَّة. وكان الرَّجُلُ – رحمة الله – ساعَةَ ورود الخبرَ عليه بخرُوجنا، انطبق له، واعتلَّ لما رأى من هَوْله وسوءِ عاقبته. وقضى عليه وصول العسكر إلى الباب، وهو على تلك الحال؛ فأفْرَعَ لها ومات.

* [ق ٦٧ ب] ووَلِى بعده ابْنُهُ مُعِزُّ الدولة، الناهضُ إلى قَلعة حَمَّاد على ما نَصِفُه بعد هذا.

وقد كان، لَما رأى من طَلَب [المُرابط لبلاده]، قد وجَّه إليه ابنه الآخر، يَعظُه ويُعلمه بوَجه الحقِّ فيه، إذ كان ينْتَحِلُ فِقهًا؛ وذلك مما ذَكَرْنا من قلَّة المَيْز بالأحوال، إذ يَرَى هذه الأمورَ مشتعلةً، ويطمع إطفاءَها بالوعظ! فساعةَ وصوله، أمر الأمير بثقافه على المقام فى الحديد.

وتحيَّــل أَبــوه فى انطلاقه، حتى انصرف إليه فارًّا من المُرابط: اخْتَلَسَــهُ من مَوْضِعه رَجُلٌ له شَبَّاك، قذف به فى البحر حتى سَلَم إلى والده.

وفــتر الطلَبُ على المريَّة للشــغل بما حــدث بأمر ابن عبّاد، وأنّه أَوكَد الأشــياء. وإنَّ ابن صُمَادِح، لما حضرته الوفاة، وصّى ابنه هذا المســتَخْلف، وقال له: «أمْتَسِــكْ فى هذه القَصَبة طوال مقام ابن عَبّاد فى مُلْكِه بإشْبيلِيَة ما اسْتَطعْتَ! فإن رأيت ابن عبّاد قد خرج، فلا تتربَّص ســاعةً واحِــدةً، وَانْجُ بنفْسِــك إلى القلعَة، وادْخـل البَحْرَ بما قدرته عليه مــن ذخائرك، إذْ لا مَطْمَعَ لك فى البقاءِ بَعْدَه!»

فحفظِ وصِيَّة أبيه؛ وســاعةَ ما انقضى فى إشــبيلِيَة ما انقضى، تَخيَّرَ قِطعةً أشْحَنَ فيها جميع ما قدر عليه من ذخائره، وكتم أمرَه، وخرج باسم أنَّه ناهضٌ إلى أمير المسلمين بهديَّةٍ ليُهَدِّنَ بذلك أهــل المرية؛ فسُــرُّوا بفعله، وقالوا: «هذا هو الصواب، قبــل أن يحلّ بك ما حلّ بغيرك!» حتى توسَّــط البَحْرَ، وأعْطى للنَّواتِيَّة مالاً جســيمًا، وأخبرهم غرَضَه. وخــرجَ بالجزائر وأكْرَمَه صاحب القلعة، وأمّنَهُ فى ذخائرِه وأكرَمَ ضِيافَته، وخيَّرَهَ حيث يحبُّ السُّكْنَى؛ فاختارَ تَدَلّس، لأنَّها على البَحر، وليغِيبَ عن عين الســلطان، خَوْفًا من الطلَب. وانْخَمَلَ فى ذاتِه، وأخَذَ لنفســه بالأرْجَح فى أكثر أحوالِه.

٧٩ - توتُّر العلاقات بين الأمير المُرابطى والمعتَمد

وإنَّ المُعْتَمِد بن عَبَّاد، لَمّا بصر بدخول الأمير غَرْناطة، وأســتنجز وَعْدَه، فَلَم يُلتفتْ، ورأى ثِقافَهــا بالمُرابِطين وإخراجَ من فيها من الحَشَــم وكلّ من طمع بالبقاءِ على حالهِ، جزع جزعًا شديداً، وخاف أن يثْنِى به، إذ رأى الأميرُ مَذْهبَه فى البلاد واستصراخَه. * [ق ٦٨ أ] ولم يمكن للأمير أن يأخذَه بغير ذنب: فيقبح ذكره. وأشار إليه المُرابطون بثقافة؛ فأبَى حتى يلوحَ قِبَلَــهُ ذَنْب يؤْخَذ به ثُمّ إنــه، بعد أن نهض واتبَعَه قرُور يقول له: «الأميرُ يحتاجُ إلى تذكارك بعض الأمْر!» فَأبى، ومضى لوجْهته، فارًّا بنفسه، وأطْوَى المَراحِل، حتّى وصل قُرْطُبَة، وقال فى طريقه إلى ابن الأفْطَس: «انْجُ بِنَفْسِك! فقد تَرَى ما حلّ بصاحِب غَرْناطة، وغَدًا بنا!»

ثــمَّ إنــه، بعــد أن ظَهــر للأمــير نُفُــوره، وَجَّهَ إليه يأمُــرُه بالقدوم عليــه، ويقول له: «نُريــدُ الاجتماع بك فيما نحنُ بســبيله» ليقول: لا!» فيَجِدَ الســبيلَ، كما فعل. فراجَعَهُ ابن عَبَّاد: . «إن ذلك كان وَقْتَ كُنْتَ ضَيفًا، وتُريدُ الغَزْوَ، فلزمَتْنى معونَتُك بنفسى وجميع أموالى! والآن إنما أَنْت لى جارُ مِثل باديس وحفِيدِه؛ وأنْتَ أقْدَرُ مِنِّى على الشرِّ بجنُودِك! فلا يُمكِنُنى التغريرُ بنفســى، عســى أنك تُريد أخْذ بَلَدِى، إذ لا تصحُّ لك غَرْناطةُ إلاّ بما يضاف إليها من الأنْدَلُس!» فشــرط عليه أميرُ المسلمين أن يلتزم الربَّاط. ويقطع القَبَالات، وتَحامُلاً كثيراً عَلِمَ أنه لا يفعله؛ وفى تركِهِ أوْ فعله قطْعهُ. فامْتنَعَ ابنُ عبَّاد جِهْدَه، وبَنَى على الشرّ.

وبدأ [المُرابطُ] بمُداخَلة مَعَاقِلِه؛ فانْتَثَرَتْ، كما جرى لغيرها؛ وقامت عليه الرعايا بكلّ قطر. فأرسل إذ ذاك إلى الرومىّ، يستغيث به؛ فقعد عنه، خَيْفَةً من التغْرير، وهى حُجَّةُ أمير المسلمين

على ابن عبَّاد، أن قال له: «ظَفَرْتُ بكُتُبك إلى الرُّوميّ وإرسالِكِ عنه!» فقال المُعْتمد: «لو فَعَلْتُهُ قَبْلَ أنْ تُؤْخَذَ بلادى بَطَرًا وأشَرًا، كُنتُ ألأم! وأمَّا بعدَ أن رأيتُ طَلَبِى فى الروح، اضطَرَّتْنى الضَّرُورةُ إلى ذلك للمُدافَعة، ولو يومًا واحِدًا!» وهى كانت عِلَّةُ الجميع؛ وبذلك هلك ابنُ الأفْطَس. ومنهُ أتِىَ.

٨٠ - الاستيلاء على قُرطُبة وإشبيلية ونَفى ابن عبَّاد

فلمّا تبيّن للأمير خِلافُه وقُعودُه عنه، شـاوَرَ الفُقهاء فى أمْرِه؛ فأشـارُوا عليه بغزْوِه. فكان غَــزْوُهُ بعد إبلاء عُــذْرٍ؛ ولِهذا ما أخرّ[1] به لِيُهلِكَ من هلك عن بَيِّنَــةٍ ولتكونَ له الحُجَّة على من يُريدُ إخراجَه. فأمرَ الأميَر سِــير * [ق ٦٨ ب] بالخروج إليه. ونَهَضَ، ونَحْنُ بِمكْناسة. ونازلهُ مُدّةً طويلةً؛ ومَعاقِله قد ذهب أكْثَرُها بالطاعة.

وافتتح الأَميرُ بخلال هذا مدينةَ قُرْطُبة، واستُشهِدَ فيها ابنُه المأمون ووزيراهُ ابنُ زَيْدُون وابنُ بَكْــر – رحمهم الله – بُمداخَلةٍ مِــن أهْلِ البلَد، مع انخراق المدينة، وأنّه لم يمكن ضَبْطُها إلا بأهْلِها. وكان المعْتمِد حَذِرًا على قُرْطُبة، يرجو بَقاء حاله بِثُبوتها، ويُوصى ابنَه بالصبر، ويقول له: «لا تجزع! فالموتُ أهْوَنُ من الذّلّ! ولَيْسَ السُّلطانُ إلّا من القَصْرِ إلى القَبْر!».

فلمَّــا أخِــذَتْ قُرْطُبــة، انقطع الرجــاء، وضاقَتْ إشْــبِيلِيَة، ونفد ما كان بيــده من أجْل النفقات، إلى أن دخلها الأميرُ سِير عُنْوةً بمُداخَلةٍ من بَعْض أهلها. وهلك فيها عالَمٌ، وانكشف الحُرَمُ، إذْ للجَيْش مَعَرَّةٌ لا تُمْلَك بَعْدَ صَبْرهم على مَلِكِهِم. وظهر لِسِير من اجتهادهم فى القتال ما أعجبه ذلك، وقال: «لو أنّى أقصد[2] مدينةَ الشّرْكِ، لم تَمْتَنَعْ هذا الامتناع!».

وكان دخولهــا مــن ناحية الوادى، وهو أسْــهَلُ الأماكن. ولولا صبْر أهْلهــا وكَثْرة أقارب ابــنِ عبّــاد، لم يســتطع [المُعْتمِدُ] على شــيءٍ؛ فكأنَّهُ غُلِبَ بالثّقاتِ الذيــن كانت الأبوابُ بأيديهم، ووَكّلهم بَمنْ ســوَاهم، إلى أن لم يَكُنْ مع القضاء مَدْفَعٌ. وكان دُخولها يوم الأحد فى [٢٢] رَجَب [سنة ٤٨٤]؛ فى التأريخ الذى دخلَتْ فيه غَرْناطة بَعْدَها بعام كامل.

ودُخِلَتْ قَبْلَها قَرْمُونَةَ، ومات فيها عالَمٌ كثيرٌ. ثُمَّ الْتَوى أمْرُ رُنْدَة، ونازَلَها قَرورٌ. إلى أن ظفر بالراضِى، وخَدَعَهُ، وحصل على أمواله؛ ثمَّ قَتَلَه، خَوْفًا من أن تفتضِحَ تلك الأموالُ. وقيلَ إنّ ذلك لم يكن عن رأي السلطان. وأمَرَ بقَتْلِ كلّ من ظفر به فى رُنْدَة المذكورة من الأحرار والجُند المُقاتِلين. وقتِل فيها رَجُلٌ من العَرَب يُعرف بأبى الصّمْصَام، جرْأةً على الله، ليأخُذَ بِنْتَهُ، ونكحها من بعده وحصل على مالِهِ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ﴾[3]. وامْتَسَكَ بالعَبيد، وصيرَّهَم إلى السلطان.

ولـمَّا ظفر بابن عَبَّاد، فَيَّأ الأميرُ سِــيُر خدَمَهُ وعَبيدَهُ، حاشَــى أمَّهَات الأولاد. وأمَرَهُ أميرُ المسلمين بإرساله إليه. فقدم إلينا بمكْناسة مع دَخْلَتِهِ، وَبَقِىَ * [ق ٦٩ أ] فيها إلى أن سِيق معنا إلى أغْمَات.

---

(١) أصل: «وخر».

(٢) أصل: «نقصد».

(٣) سورة هود الآية ١٢٣ و سورة النمل الآية ٩٣.

٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مرَّاكش

وإنَّ أمير المسلمين، لمَّا فتح الله له فى هذا كلّه، أخَذَ فى الانصراف إلى مَرُّوكُش، وقد بلغ من آماله غايَتها، وامْتَلأت يَداهُ بالأموال، وقسم على أجناده بعض من الفَيْءِ، وأهْدَى إلى الصَّحْراوِيِّ عَمِّه من تلك الذخائر وأمَرنَا أن نَسْتَوطِن آغمَات، فأتيناها، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ جميل، وأنزَلَنا بداره الصُّغرى فى الحريم، ولم يَزَلْ يَعْتَقِدنا من إنعامه. كيف ما هَيَّأ الله على يديه، ووَجَدْناهُ بعد الله أرفَقَ بنا، وأحْسَنَ مَذهَبٍ فينا من الناس أجمعين، ومن كلٍّ من سبق إليه مِنَّا إحسانٌ.

٨٢ - عزلُ المتَوكِّل بن الأفطَس صاحِب بَطَلْيَوْس ومهلكُه

وبَقِي ابنُ الأَفْطَس يتخدَّم أمْرَه، وكان يُدَارِى ابن الأحْسَن، وينفَعِلُ له فى كلِّ ما أراد، طمعًا منه فى البقاء لحَيْنِه، وهو، فى ذلك كلّه، يُنْهِش، ويُرى آيآت تَدُلُّ على الشرّ، وأنَّ المذهب فى أخذِهِ. ودَاخَلَ عليه ابن الأحْسَن فى بلده، فشعر بذلك، وتيقَّظ له، واستوحش من المُرابطين، وداخل الرُّومِىَّ، فحقَّتْ عليه المُطالبة، وسُعِىَ عليه جَهْرًا، بعد السَّعْى سِرًّا، وهو، فى ذلك كلِّه، مِثْل السَّمكة العاجزة المَوْصُوفة فى «كتاب دِمْنَة»: لم تَزَلْ فى تَقَلُّب وتَرَدُّدٍ، حتَّى أخذَها الصَّيَّاد، وهو كذلك يُريدُ أن يُخَلط: يُخَاطِبُ الأميرَ بإظهار الطاعة والمُشَارَكة فى أمر الرُّومِّى، ويُخاطِب ألْفُونش ليستعينَ به على مُلِمَّةٍ، إن دَهَتْهُ من المُرابطين. وكان ابنُه المنصورُ داهِيَةً بالأمور، قد أشْرِبَ قَلْبُه الحِذْرَ والخَوْفَ، وقد رأى طريقةَ ابن الأحْسَن، وسعْيَه على أبيه، وهو رَجُلٌ سِجِلْمَاسِيٌّ فَقِيهٌ، مُتَصَرِّفٌ فى أمور الأمير، استَوْطَنَ بَطَلْيَوْسَ، واكتسب فيها مالاً، يَرَى أنَّ كَوْنَه فى الثَّغر لِمَا ينفع المسلمين، وهو يعمل فى خَلْعِ صاحِبها.

وكان ابنُ الأفطَس الشيخُ مُتَّبِعًا لهَوَاهُ، لو سألَهُ روحُهُ ما لا يَحلُّ عليه، [عمل] به، مُتَوَقِّعًا لشرِّه. وكل شيءٍ يحذرُه الإنسانُ ويكرهه بقلبه، ولا يكون عليه بالخيار، فهو مُتَوَرِّطٌ لا مَحالة فيه، فإن المُداراة فيه منَّا لا تنفع، والاسْتِعمالُ مُنْقَطِعٌ، ولا خَيْرَ فى مُجاوَرةِ عدوِّك عند الحاجة إليه، إلَّا أن تَدْرَى عند ذمِّ العاقِبةِ معه أنَّكَ مُسْتَغْنٍ عنه بغَيْرِه؛ * [ق ٦٩ ب] وإلَّا، فأنتَ له طُعْمَةٌ.

فقال له ابنُه المنصورُ: «هذا التَرَدُّدَ لا يجزئك، ولا يغنى عنك ما تُرى من إظهار الطاعة للمُرابط! ولا طاعةَ أَهْلِ بَلَدِكَ لَكَ ومَحَبَّتهم التى كانوا يعرضون عليك! فلو أنَّهم يَرَوْنَ بعضَ حقيقةٍ فى عزيمةٍ، لَمَا أبْقَوْا عليك، كالذى رأيتَ صُنِعَ بغَيْرِكَ! فإمّا أن تُصْفِىَ للمُرابِطِ فلَنْ تَبْلغ مرضاته إلَّا بالانخلاع له ووَضْعِ البَلَد فى يديه، وتقنَعْ بأن تكونَ مُتَحَرِّيًا، مُتَخَلِّيًا عن الرياسة؛ فعَاجِلْ ذلك، تَجِدْ عنده الأمانَ! وإن نفَرَتْ نفسُك عنه، فلا تتأخَّرْ عن الفِرار منه بنَفْسِك وأهْلِك وجميع أموالِكَ! ! يجعلك الرُّومىُّ فى أىِّ بلدةٍ شئتَ، ورُبَّما سَوَّغَها لك، كما فَعَلَ بابن ذى النُّونَ

في بَلَنْسِيَة، وتَترُكَ مدينة بَطَلْيَوْس، لا تدخل على المسلمين داخلةٌ، فيحصل لك النجاةُ بمُهْجَتِك، وسلامةُ البَلَدَ للمسلمين!» فقال له أبوه، وسَفَّهَ رَأيَه: «لا أترُكُ مَوْضِعِى! وعسى أن تُهَيِّئَ الاقدارُ ضِدَّ ما تظنُّ!» فخرج عنها ابنُه، ونَجَا بمالِه وأهلِه، وأخذَ لنفسه بالرأى الذى أشار به على أبيه. وبَقِى الشيخ لحيْنِه، حتى نفذ أمرُ الله فيه:

وإنَّ الأمير سِيَر، لَمَا أراد من التخدُّم لأمْر بَطَلْيَوْس والحيلةِ فيها، لم يَثِقْ بنفسه فى ذلك، لحدوثِ ولايتِهِ الأندلس، ورأى أنَّ الداءَ لا يُعانى إلا بدَوَائِه، ولا يُلقَى أحدٌ إلّا بحَجَره؛ فتخيَّر لذلك ابن رشيق، لأنّه أنْدلُسيٌّ، عالمٌ بالمكايِد فى الفتون، مع ما كان له عليه من الأيادى قَبْلُ فى لِيِّيط، وأنَّ ثقافَة ذلك الوقتَ لَم يكن إلا على رغْم منه بمُضَادَّةِ قُرُور له. فانتهز الفُرْصةَ فى إطلاقه، والمُكافأة له على صَنِيعهِ بما يأمرهُ من أمْر بَطَلْيَوْس.

وخاطَبَ السلطانَ فى أمره، بعد أن أطْنَبَ فى صِفَةِ حاجته إليه. فقبل قَوْلَه، وأَمَرَ بإرساله، وألْطَفَ له القَوْل، واعتذر إليه مِمَّا جَرَى، وأمر له بمالٍ جسيم. ونَهَضَ، بعد أن حَدَّ له الوقوف عندَ أوامِر سِير، وأنّه مُسْتَخْبِيه؛ فمضَى. وفجىء الناس من انطلاقه * [ق ٧٠ أ] ما تعَجَّبوا منه وخلطوا القول فى ذلك، كلٌّ أحَدٍ على مِقْدار عَقْلِه أو شَهْوَتِه.

فلمَّا وصل، تَخَدَّمَ أمْر بَطَلْيوس بكلِّ وَجْه من المُداخَلة لأهْلِ البلد ومن معه فى القَصَبة من الحَرس وغيرهم، حتى وقع الأتِّفاق على أن يطرقَها لَيْلاً، ويفتحون له [الباب] فكان من ذلك ما حاوَلوهُ، وتعلقوا بالسُّور عند الإمارة التى كانت مع من دَاخِلَه. وتُقُبِّضَ على الشَّيخ وابْنَيْهِ الفَضْل والعَباسِ، واحْتُوى له على أموالٍ جسيمةٍ، وَأمَر سِيُر بإخراجه للقَتْل، بعد أن رأى فى نفسه هوانًا عظيمًا، وشدَّهُ على المال، ونقم عليه ما كان من عَمَّلِه مع النصارى والمَعَاقل التى أعطاهم؛ فأمَر بقَتْلِه مع ابنَيْه الفَضْل والعباس – رحمهم الله –.

وطَاعَ جميعُ ذلك الثَّغْرِ للمُرابطين، كأنَّه لم يكن قطُّ لغيرهم. وفِيءَ أهْلُه وبناتهُ، وجميع ما تَرَكَه. ثمّ صار ابنُه المنصورُ فى جُملة الرُّوم، حَنَقًا لما جرَى على أبيه، يطلب الثأر، ويتطرَّق معهم بلاد المسلمين.

٨٣ - نشاط المُرابطين ضدَّ النصارى
استيلاء «السيد» لُذَريق على بَلَنسِيَة

وصرف المُرابطون وجُوهَهم إلى فِتنة الرُّوم ومُقاصَاتِها، بعد إكْمالِهم لأخْذِ سلاطين الأندلس، يقولون: «إنّه لا ينبغِي لنا قتالُ الروم، ونَتْرك وراءنا⁽¹⁾ الأعْداءَ، مِمَّن يُوَاسِى عَلَيْنَا مَعَهم!» فكلها تَهيَّأت بلا مَشَقَّةٍ غير إشْبِيلِيَة، فوقع فيها بعض التغَدُّر، كما قدَّمْنا ذِكْرَه. فسبُحان المقدر الذى إذا أراد شيئًا أن يقول له: «كُنْ! فيكون» هذا نَصُّ ما كان ولا نعلمِ ما يكون، كما قال بعض الشُّعَراءِ:

وَأَعْلَمُ علم اليَوْمِ والأمسِ قَبلَه ... وَلكنَّنى عَنْ عِلْمِ ما فى غَدٍ عَمِ

(١) أصل: «ونتركوا ورانا».

ثم نشأ بعد ذلك من أمْرِ بَلَنْسِيَة ما لم يَنْبَلِجْ بها ما يوصَف، فإنَّ الحديث لا يَحْسُن ذِكْرُه إلَّا بَعْدَ تَقَضِّي آخِره، والقَوْسُ لا تُكَبَّد إلَّا بقَبْضِ طَرَفَيْها، فإذا استكمل الخَبرَ، طابَ إيرادُه وحَسُنَ مَوْقِعُه، ونُمِّق بَعْضُه ببَعْضٍ. ولو أنَّنا نَدَعُ هذا التأليف إلى مُدَة يتُّم فيها خَبَر بَلَنْسِية، لأتَيْنا بـه بَعْدَ أن يكون الظهرُ للمسلمين، وتُرِكَ * [ق ٧٠ ب] هذا الدِّيوان مخرُومًا، انتظارًا لِمَا يكون فيه أمَلٌ بعيدٌ.

واسْتِئْناف تأريخ له فصولٌ لا يُغْنى، لا سيَّما أنَّنا أخذْنا أنفُسَنا فى حَيِّز تَمامِه بما يليق بالزمان، ورضُنْاها بما تستمرُّ عليه من تَرْك الشَّره والتَّنَزُّه عمّا فات، وإعمال قَطْع اليأسِ عمَّا قيل، واليأس عمَّا فات يُعَقِّب راحةً؛ وَلَربَّ مُطْعَمَةٍ تعود ذُرَاحًا.

فإذا كان ذلك كذلك، فأوّل ما يَجِبُ أخْذُ أنْفُسِنا به إخلاصُ النِّيَّة لأمير المسلمين - أيَّدهُ الله! - وتَمَنِّي الخَير له، لأنَّ صلاحَ المسلمين بصلاحه. ومن الديانة اعْتِقاد ذلك، لِمَا أُمِرَ به من طاعةِ الأيمَّة والنُّصح لكلِّ مُسْلم، لا سيَّما أنَّه مُحْسِنٌ إلينا. ثمّ اقْتَصَرْنا على النظر فيما يخصُّنا وأنْزَلْنا أنفسِنا بمنزلة من لَم يكن قطُّ إلاّ على هذه الحالة، واعتَبْرنا بمن كان قَبْلنا ونَظَرْنا لمن هو دوننا.

٨٤ - تأمُّلات فى تقلُّب الأقدار

وما حلَّ بابن الأفطَس، فشكرنا الله على مانَجَّانا منه، وصرَّفْنا وَجْهَ اهتبالنا إلى ما ننتفع به، وغَلَّبنا النفسَ الناطِقةَ على الحَيَوانِيَّة، فإنَّها تحمل على الفضائل والإنصافِ، ومَعْرفةِ حقائق الأشياء، كما أنَّ الحَيَوانيَّة تحمل على الغلبة، وإيثارِ الشهوات، والحيدةِ عن سُبُلِ المَعْرِفَة.

ورأيْنا أنَّ شُغْل البال بما مَضَى لا يَرُدُّ شيئًا غير الهمِّ والكرب اللَّذيْن يُنحلان الجِسْمَ ويذهْبانِ اللُّبَّ، وأنَّ الحَرَجَ على مالا يكون تعبٌ للبَدَن ومَشَقَّةٌ للإنسان؛ لإنّ تقولُ الفلاسفةِ: لا يُلْتَذُّ بما مَضَى، ولا يُدْرَى ما يكون فيما بَقِي؛ وإنّما له لذةُ ساعَتِه التى هو فيها، أو عَمَلُه الذى يَجِدُه لِمَعادِهِ. فإن أعْقَبَ الله بخير، فَلَنْ نَخْسَر ما سَلَفَ من أيّامنا، فَنَهْرمَ قَبْلَ أوان الهَرَم؛ وإن كان الذى يأتى أشَدَ من هذا، فيحقُّ اغتِنامُ ما نحنُ فيه، ونُعدُّها أعيادًا، ونُحْدِثُ لله عَمَلًا يَرْضاه؛ وإن كُنا أبَدًا على هذه الرقبةِ بلا انتقال (وغَيْر مُتَمَكِّنٍ من ذلك) فتَوْطِينُ النفس على ما يَعْلَمُ أنها عليه دائمةٌ، وأحْرى وأرْوحُ للبال.

ثمّ إنِّى اعتبَرْتُ جميع ما فى الدُّنْيا، التى إليها يَسْعَى الناسُ، فوجدتُ نفسى مُبْلِغةً منها كلَّ أمَلٍ؛ وإن انقَطَعَتْ، فلم نصحبْها، ونجنُ منها * [ق ٧١ أ] على يقينٍ بتَخْليدها. بل، لكلِّ شيءٍ مُدة، ولا بُدَ من تَرْكِها.

والخروجُ منها فى مُدة العُمُر خيرٌ من مَيْتَةٍ على فِتْنةٍ أو غَرْقٍ، عَسَى بذلك أن يُعْظِمَ الله الأجْرَ، ويُكَفِّر السَّيئات. ويكون ذلك للإنسان زاجرًا عن الآثام، ويعتُبر فَقْدَ مالِه كأنَّه لم يكتَسِبْه برَزِيةِ نفسه إذ حان حينه، فُيقَدم لها النظَرَ، بتوفيق الله تعالى، قبل الموت وحلول الفوت. والله المُسْتَعان! لا شَريك له!.

سُـئِلَ النبيُّ – عليه السلام – عن عَلامَةِ انشراح القَلْب للإسلام، فقال: «هو التجافِي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاسْتِعْدادُ بالمَوت قبل لقاءِ الفوت.»[1].

* * *

(١) ورد فى السيرة النبوية وطبقات ابن سعد.

obeikandl.com